نحو أدب فلسطيني جديد

عدنية شبلي*

الكتابة كما الحياة

في مرحلة مبكرة جداً من حياتي اكتشفت أنه ليس من الضروري أن يكون هنالك سبب محدد لإثارة الإحساس بالوحدة والتعاسة، فهما في داخلي وقد ينقضان عليّ في أي لحظة من دون سابق إنذار. بدوري كل ما فعلت هو مقاومتهما قدر ما استطعت. وكنت قد حاولت كل شيء، من الانضمام إلى فريق كرة السلة، حتى الرقص على مقعد عالٍ في أحد البارات، بل بتّ أكثر الناس شهرةً بالمرح والصخب لدرجة الإزعاج. لكن ما إن أنتهي من هذه المحاولات كلها، حتى أعود وأجد نفسي في المكان ذاته، وها هما الوحدة والتعاسة في انتظاري لينقضّا عليّ مرة أُخرى بالحدّة والجدّة ذاتهما، كما لو أنني لم أعهدهما من قبل.

وبسبب إحساسي بالعار نحوهما كما لو كانا ندبتين مريعتين في جسمي عليّ سترهما، حرصت على ستر كل ما أحسست من وحدة وتعاسة. فقط رحت أكتب بصمت كلما وقعت فريستهما. كانت شقيقتي التي تكبرني بستة أعوام قد منحتني، ولسبب لم أفهمه إلى الآن، دفتراً صغيراً. ربما كانت قد لحظت هي وحدتي وتعاستي على الرغم من محاولاتي إخفائهما، وأرادت أن تسعدني فأهدتني ذلك الدفتر. كانت خلفية صفحاته الزهرية والزرقاء على التوالي ملأى بالورود، وكنت في العاشرة من عمري حين بدأت الكتابة فوقها، كلما ألمّت بي نوبات الوحدة والتعاسة تلك. وكلما ازدادت وتيرة هذه النوبات، ازدادت وتيرة الكتابة. وكما حرصت على إخفاء ما أحسست به عندها، حرصت على أن يبقى خفياً كل ما كتبت تحت وطأة هذه النوبات. وهكذا حين سيطرت الوحدة والتعاسة عليّ أخيراً لدرجة الاختناق، باتت الكتابة خِفيةً هي كل ما أفعل ليل نهار.

كنت وقتها في بداية العشرينات من عمري، وكنت قد نجحت في أن أفشل في كل شيء تقريباً، في دراستي الجامعية وعلاقتي بمَن حولي، وحتى في أن أتحدث. كان الشيء الوحيد الذي أحسست في قرارة نفسي بأنني قادرة عليه لدرجة اللهو هو الكتابة.

في سنة ١٩٩٦، كنت قد وصلت إلى عامي

* روائية من مواليد قرية الشبلي / شمال فلسطين ١٩٧٤. صدر لها: "مساس" ٢٠٠٣؛ "كلنا بعيد بذات المقدار عن الحب" ٢٠٠٤.

الدراسي الأخير في الجامعة بأعجوبة وبمعدل يكاد يكفي. ولنيل شهادة اللقب الأول، كان عليّ أن أنجح في جميع المواد المطلوبة في ذلك العام، وخصوصاً المواد الأساسية، لكن كطالبة في قسم الصحافة والإعلام، كان أمامي الخيار على الأقل بين أن أدرج نفسي في تلك المواد الأساسية ولاحقاً الامتحان بها، أو أن أمارس بدلاً من ذلك التدريب المهني في مؤسسة إعلامية لبضعة أشهر. لم أكن لأتمم أياً من الأمرين بنجاح، فقد بلغت خراقتي وقتها أوجها. لكن اتضح بأن الخيار الثاني يضم إمكان الكتابة لمجلة ما، مقالات نقدية مثلاً، وسيُعتبر ذلك بمثابة تدريب مهني. وبدأت أكتب. كتبت بحرية وطلاقة كعادتي في الكتابة، وعلى عكس ما اعتدت أن أكون في الحياة. كتبت نصاً طويلاً، طوله ١٣ صفحة، وأرسلته إلى إحدى المجلتين الأدبيتين الرئيسيتين في فلسطين. وبمجرد أن اتصلت بالمحررة وقلت لها أنني طالبة جامعية، وما هو اسمي، وأنني أود أن أرسل نصاً نقدياً يتمحور حول السينما، حتى طلبت مني أن أرسل المادة وسترى. بعدما أرسلت المقالة بالفاكس، اتصلت بالمحررة مرة أُخرى للتأكد من وصولها، لكنها ما إن سمعت صوتي حتى راحت تتذمر بأنني أنهيت مخزونها كله من ورق الفاكس. ولم أجرؤ على الاتصال بها بعدها للاستفسار بشأن النص، وما إذا كان سيُنشر أم لا.

بعد شهرين ربما من إرساله، كنت في زيارة لشقيقتي، وهي الشقيقة ذاتها التي أهدتني ذلك الدفتر الصغير حين كنت طفلة، والتي كثيراً ما كنت أذهب لزيارتها، أو بالأصح لزيارة ثلاجتها، إذ عادة لم يكن يبقى لديّ كثير من المال بعد تسديدي أجرة البيت لشراء كثير من الطعام. كنت قد وصلت للتو، وكعادتي اتجهت نحو الثلاجة قبل أي شيء، ليس لأي سبب عدا تحيّتها، صديقتي العزيزة. عندها وصلني صوت شقيقتي من خلف باب الثلاجة، قائلة إن بعض أصدقائها اتصلوا بها (فأنا لم يكن لديّ حتى هاتف ليعلمني أحد بذلك)، وأخبروها أنهم قرأوا نصاً لي في المجلة التي بعثت بالنص إليها، وأنه أعجبهم. صُدمت. اتجهت مباشرة إلى أحد المقاهي التي تبيعه في مثل ذلك الوقت المتأخر. كان الوقت مساء. حملت أحد الأعداد المعروضة على الرفوف للبيع على يسار مدخل المقهى، واتجهت نحو صندوق البيع لدفع ثمنه. لكن صاحب المقهى الذي كان يجلس قريباً، طلب من الشاب الواقف خلف الصندوق ألا يأخذ المبلغ، قائلاً إنني كمساهمة في المجلة يحق لي الحصول على نسخة مجاناً. ثم أضاف أن نصي جميل. لم أكن أعرف حتى أن صاحب المقهى يعرف اسمي.

تركت المقهى وخرجت إلى الشارع حيث فتحت المجلة عند الصفحة الأولى من نصي، وعندها رأيت كلماتي التي لم أرها من قبل إلاّ في أوراقي المخفية جيداً؛ هذه الكلمات الموجودة الآن في المقهى وعلى رفوف المكتبات وربما في بيوت أناس لا أعرفهم حتى.

إلى الآن أقع ضحية نوبات الوحدة والتعاسة تلك غير القابلة للتفسير، وإلى الآن أفشل في أن أكون الإنسان السويّ والجيد الذي كثيراً ما حلمت بأن أكونه. لكن الآن هناك على الأقل الكتابة التي مكّنتني من عيش وجودي الحقيقي من دون الإحساس بالعار. ■